

الدلالة التهذيبية في الخطاب القرآني

دعا القرآن الكريم إلى التأدب في الخطاب على نحو يحقق الهدف الكريم الذي نزل من أجله هذا الذكر الحكيم ، فقال سبحانه ((وقلوا للناس حسناً)) البقرة (٨٣)

ومعلوم أن المصدر ينشرح للكلمة الطيبة المؤدبة الدافئة، وينكمش ويضيق بالكلمة الفظة القاسية . وهذه الدعوة القرآنية المباركة عامة شاملة، فالمسلم مدعو للتأدب في مخاطبة سيده ومولاه سبحانه ((وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا^١ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٨٠))) الأعراف .

قال الالوسي : " الأسماء الحسنی هي التي تنبئ عند أحسن المعاني وأشرفها " . والمسلم مدعو أيضاً للتأدب مع نبيه عليه السلام ، فقال سبحانه " لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا " النور (٦٣) ومدعو للتأدب في مخاطبة الناس أجمعين ، مؤمنهم وكافرهم ((فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ)) طه (٤٤) .

ويتأكد جانب الأدب في حق الدعوة الى الله تأليفاً لقلوب الناس واستنزالاً لهم، وتلييناً لمواقفهم ((وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ^٢)) آل عمران (١٥٩) .

وقد نهى القرآن الكريم عن الجهر بالسوء من القول خاصة في مخاطبة الوالدين ((فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا)) الإسراء (٢٣) وفي الرد على جهل الجاهلين ((وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا)) الفرقان (٦٣) وليس في ذلك من حرج، فكل ينفق مما عنده فبضاعة الجاهل الجهل وبضاعة العارف العلم والحلم .

ولكي يتحصل المسلم على الأدب المطلوب في المخاطبة يحسن به الا يتعجل في كلامه ، وألا يندفع فيخرج من فمه كلام غير محكوم بضوابط العقل وموازن الشرع فيكون بذلك شبيهاً لمن قال الله سبحانه فيهم : ((وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ)) النور (١٥) .

الكلمة الطيبة لها أجر كبير ، وثواب جزيل في حين أن الكلمة الخبيثة ذات خطر عظيم على صاحبها ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى ، لا يلقي لها بالاً يرفعه الله بها درجات في الجنة ، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى لا يلقي لها بالاً يهوي بها في جهنم " .

وعلى أي حال ... فالقرآن الكريم كله أدب وخلق وتهذيب ، وتربية للسلوك السوي وتنمية للقيم الفاضلة والأخلاق العالية الرفيعة ، ولهذا حرص على أن يكون خطابه بأسلوب يجذب السامع نحوه ، ويعيد النافر إليه ، ويحبب المبعوض فيه ، يؤلف به القلوب ، ويجمع حوله الأفئدة ، ولذلك يتخير من الكلمات ما هو رقيق الحاشية ، ناعم الملمس ، عذبا في الفم ، لذيذاً على السمع ، يأنس منها المستوحش ، ويأمن بها الخائف ، حتى يقبل على الدعوة ، وهو راضي النفس ، مطمئن البال ، قريح العين ، منشرح الصدر ولا نستطيع أن نحصي قطوفه الدانية في هذا الموضوع، ولكننا نلمح إلى بعضها بما يفتح الله فنذكر منها وبالله التوفيق ما يأتي :

- المثال الأول : السوأة :

يذكر الله تعالى أنه قد أباح لآدم (عليه السلام) ولزوجته حواء الجنة أن يأكلا منها من جميع ثمارها إلا شجرة واحدة... فعند ذلك حسدهما الشيطان وسعى في المكر والوسوسة والخديعة ليسلبهما ما هما فيه من النعمة واللباس الحسن فبدأت وسوسته وترغيبه ليحصل على ما يريد ، ((فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ))، فقال سبحانه وتعالى (سواتهما) أي: عوراتهما ، ولم يقل عوراتهما ؛ ترفع عن ذكر الفحش من القول وانسجاماً مع المستوى التهذيبي الذي تميز به القرآن الكريم . وقد يكون مراعاة لمكانة أبي البشرية آدم (عليه السلام) وزوجته حواء عند سرد قصتهما لذريتهما ؛ لأن العورة قد ذكرت في القرآن الكريم صريحة في أكثر من موضعه ، وقد جاءت مكناةً بها .

والسوأة فرج الرجل والمرأة ، وذلك لأن ظهوره يسوء الإنسان ، وهذا من باب الكناية ، أي كني عن الفرج بالسوأة . يقول صاحب تفسير المنار : " ومن باب الكناية بدت سواته وبدت لهما سواتهما ، وإذا أضيفت السوأة إلى الإنسان أريد بها عورته الفاحشة لأنه يسووه ظهورها بمقتضى الحياء الفطري " .

- المثال الثاني: ضحكت .

يصف تبارك وتعالى قصة إبراهيم (عليه السلام) مع الملائكة الذين أتوا لمعاقبة قوم لوط (عليه السلام) الذين عصوه واتبعوا الشهوات . وفي أثناء هذه القصة يصف الله تعالى زوج النبي إبراهيم (عليه السلام) بأنها : ((وَأَمْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ)) . هود/٢٣ وهذه الآية قد استوقفت مسيرة هذا البحث لما تبعته من إحياءات خفية ودلالات جمالية .

- فما الذي أضحكها... ؟ وما علاقة الضحك بالبشارة بالولد ، وهي عجوز .. ؟
- لقد اختلف المفسرون في تفسير هذه الآية : لكن لم تخرج تأويلاتهم عن أربعة معان:
- أحدها : أنها ضحكت سرورا بزوال الخيفة عن زوجها (عليه السلام).
 - وثانيها : ضحكت سرورا بهلاك أهل الخبائث قوم لوط (عليه السلام)
 - والثالث : أنها ضحكت من غفلة قوم لوط مع قرب العذاب .
 - والرابع : أنها حاضت .

والذي يلفت الانتباه ويستوقف النظر منها هو الرابع ، مع الاحتفاظ الكامل بقيمة الدلالات الثلاثة الأخرى . وفي هذا الصدد الطبري: ((... وقال آخرون : بل معنى قوله (ضحكت) في هذا الموضع ، فحاضت . وقال بعضهم أن العرب تقول: (ضحكت المرأة) حاضت)) . كذلك يسند هذا القول قول القرطبي في هذه الآية ((فضحكت) قال مجاهد وعكرمة : حاضت ، وكانت آيسة، تحقيقاً للبشارة))

وفي هذا الأسلوب مراعاة لما تطلبه هذه القصة، ولا سيما عندما نتحدث عن لقاء جليل وعظيم الا وهو لقاء الملائكة بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

المثال الثالث: السوء.

قال سبحانه وتعالى في كتابه العزيز حينما كلم موسى (عليه السلام) في الوادي المقدس : ((وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى)) طه ٢٢/ قال المفسرون : (من غير سوء) أي من غير برص ؛ وفسر بالبرص لأنه من الآفات التي تتعرض للبدن . وفسر غير واحد من المفسرين (السوء) على الإطلاق ؛ أي من غير أذى ولا مرض ، ومن غير شين ونحو ذلك .

ويقول الزمخشري : " السوء : الرداءة والقبح في كل شيء ، فكني به عن البرص كما يكنى عن العورة بالسوأة ... فكان جديراً بأن يكنى عنه ، ولا نرى أحسن ولا أطف ولا أحر للمفاصل من كنايات القرآن وآدابه " .

ويظهر من هذا السياق مراعاة نفسية الإنسان العربي فيما يكرهه وينفر منه . وهذه من الآداب المعروفة التي اتسم بها القرآن الكريم .

المثال الرابع :الجلود.

قال تعالى: ((حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٠) وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢١))) . فصلت

لقد اختلفت الأقوال في تفسير (الجلود) في هذه الآية ؛ لكن على تفرقها تصب في ثلاثة أقوال :- أحدها : إن المراد (بالجلود) الجوارح ، أي الأيدي والأرجل .

- والثاني : إنها الفروج . قال الفراء : " الجلد هاهنا - والله أعلم - الذكر ، وهو ما كنى عنه " . وعلى هذا إنها جاءت كناية عن الفروج ، إيراداً للفظ الحسن بدل القبيح فقد عبر عما لا يحسن ذكره (بجلودهم) وفي هذا صورة مؤدية مهذبة جاءت بأحسن القول وأدق التعبير ، وقد يكون هذا الحوار بين الإنسان وفرجه هو السبب في استعمال هذه الكناية البعيدة عن المعنى نوعاً ما . فإنه يكون أقبح لو صرح به ، وأنفر للنفس ؛ لأن الحال حال محاورة ومعاتبة . فجاء أسلوباً غاية في الأدب والتعذيب ، ومراعاة للنفوس والأسماع .

- والثالث : إن المراد بها الجلود نفسها .

ويعد هذا من الجماليات الفنية في التعبير القرآني، فإنها إن حملت على القول الثاني تعد من الجماليات التهذيبية البديعية، وإن حملت على غيره تعد اختزلاً دلالياً واتساعاً معنوياً يبين قيمة المفردة القرآنية ، وما يجتمع حولها من معان وفوائد يجعلها وكأنها البؤرة والمنبع الذي تجتمع فيه دلالات السياق في القرآن الكريم .

المثال الخامس :البهتان.

قال تعالى : ((يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ قَبَائِعَهُنَّ وَاسْتَغْفِرَ اللَّهُ لَهُنَّ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)) الممتحنة/ ١٢ .

أي لا يلحقن بأزواجهن غير أولادهن " . فقد كانت المرأة تلتقط المولود ، فتقول لزوجها هذا الولد منك . والبهتان : الكذب الذي يبهت المكذوب عليه أي : يدهنه ويجعله متحيراً . والافتراء : الاختلاق والابتداع . " فكني بالبهتان المفتري بين يديها ورجليها عن الولد الذي تلصقه بزوجه كذباً ، لأن بطنها الذي تحمله فيه بين اليدين ، وفرجها الذي تلده به بين الرجلين " .

إن في هذا السياق - فضلا عما يحمله من آداب - إنكاراً شديداً ، وتفضيلاً على هذه الصفات السيئة والبذيئة . فجاءت صورة مهذبة مؤدبة تحاول القضاء على أبشع الصور في الجاهلية ولكن بأسلوب بديع يحمل في طياته الإشارة والتلميح ، مبتعداً عن كل ما قد يكدر صفو النفوس وهي تستمع إلى هذا الخطاب الإلهي الجليل.

المثال السادس: الرفث.

قال الله سبحانه وتعالى : ((أَحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ))

فالرفث هاهنا الجماع . " وعن ابن عباس رضي الله عنه : الرفث : كلمة جامعة لكل ما يريد الرجل من المرأة كالغمز والتقبيل. وأصل الرفث في اللغة : الفحش من القول ، قال الزمخشري : " رفث ورفث في كلامه وأرفث وترفث : أفحش وأفصح بما يجب أن يكنى عنه من ذكر النكاح " ؛ لكنه أريد به في هذه الآية الجماع، فكني به عن الجماعة، والله تعالى كريم يكني بما يشاء . فالرفث مقدمات المباشرة أو المباشرة ذاتها ، وكلاهما مقصود هنا ومباح ... ولكن القرآن لا يمر على هذا المعنى من دون لمسة حانية رفاقه ، تمنح العلاقة الزوجية شفافية ورفقاً ونداوة ، وتناهى بها عن غلظ المعنى الحيواني وعرامته

وتتبين لنا جمالية هذا التعبير على الرغم من دلالة (رفث) على الفحش في أصلها ؛ لكنها مع تعديتها بحرف الجر (إلى) قد انتقلت إلى دلالة جديدة أكسبتها بعداً تهذيبياً مع حصول المقصود فقد جمعت بين المعنيين الكنائي والصريح وهذا يتحقق بالاتساع الدلالي وهو جوهر التعبير القرآني في هذه المواقف الاجتماعية.

المثال السابع: التربص.

قال الله تعالى : ((وَالْمُطَلَّقاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ ۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ)) البقرة/ ٢٢٨ .

أي ينتظرن صابرات على أنفسهن ثلاثة أطهار أو حيضات . ثم بعد ذلك يتزوجن . " والتربص : هو التوقف عن النكاح ، وحبس النفس عنه". ولا يدل هذا على الامتناع عن النكاح فحسب، وإنما يشمل ترك أمور كثيرة مما يخص النساء ، والأحاديث عن النبي (ص) متظاهرة أن التربص بإحداد : هو الامتناع عن الزينة ، وليس المصبوغ الجميل ، والطيب ونحوه

قال ابن كثير : " هذا أمر من الله سبحانه وتعالى للمطلقات المدخول بهن من نوات الأقرء بان يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء أي بأن تمكث إحداهن بعد طلاق زوجها لها ثلاثة قروء ثم تتزوج إن شاءت. وقد جاء هذا الخطاب على صفة من التهذيب وذلك لأن الله سبحانه وتعالى قد أسند الأمر إليهن لأنهن أدري بأنفسهن وحالهن من سواهن ولم يسنده إلى غيرهن لما له من قيمة شرعية ونفسية فهن المسؤولات عن الأخبار فيما يوجد في أرحامهن من حيض أو ولد ؛ ولذا قال الله سبحانه وتعالى : (ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهن إن كن يؤمن بالله واليوم الآخر) . وفي هذا فوائد كبيرة ، منها نسيان الزوج الأول ، وكذلك التمتع براحة نفسية أدناها (ثلاثة قروء) وهذا يساعد على نسيان الزوج الأول ، والاستعداد لاستقبال الزوج الثاني .